فاعلية المفارقة العتباتيَّة في شعر كاظم الحجاج
العنوان أنموذجاً

الباحث: ياسين عقيل بدر

أ.د. محمد جواد حبيب البدراني

جامعة البصرة- كلية التربية- القرنة- قسم اللغة العربية

ملخص البحث:

لما كانت العتبات النصية هي الوليجة الأولى للدخول للنص الإبداعي بعامة، والنص الشعري بخاصته، فقد سعى البحث للكشف عن توظيف الحجاج للعتبات النصية في تفعيل المفارقة، إذ إنّ من السمات البارزة عند الحجاج أنه سعى لجعل عتبات نصه تحمل رؤية مفارقة تضاف لوظيفتها العتباتية وتجعل المفارقة تولد في رحم العتبة ذاتها.

الكلمات المفتاحية : فاعلية ، المفارقة العتباتيَّة ، كاظم الحجاج .

The effectiveness of the threshold paradox in the poetry of Kazem Al-Hajjaj
(The address is a model)

Researcher: **Yassin Aqeel Bader**
Prof. Dr. Mohammad Jawad Habib Al-Badrany
Dept. of Arabic Language, College of Education –Qurna ,University of Basrah

Abstract:

Because the textual thresholds are the first way to enter the creative text in general, and the poetry text in particular, the research sought to reveal Al-hijaj's employment of textual thresholds in activating the paradox. Among the distinguishing features of Al-hijaj is that he sought to make the thresholds of his text bear a paradoxical vision to add to their threshold function and make the paradox born in the womb of the threshold itself .

Keywords: effectiveness , threshold paradox, Kazem Al-Hajjaj .

ـــ المقدمة.

يرى د. سعيد يقطين في مقدمة كتاب العتبات إنّ أهمية العتبات تكمن في جوهر المادة وربما لا تمثل المحتوى "((اخبار الدار على باب الدار))، حسبما يقول المثل المغربي. ولكن لا يمكن للباب أنْ يكون من دون عتبة. تسلمنا إلى عتبة البيت، لأنّه بدون اجتيازها لا يمكن دخولنا الى البيت. لكن الأبواب مختلفة ولا يمكنها في كل الاحوال أنْ تعطينا فكرة دقيقة عن أخبار الدار"[١]

إنّ لكل بناء مدخلاً ولكل مدخل عتبة ولكل عتبة هيأة فالواجب على مصمم هذا البناء تقديمه على أتم وجه للمتلقي، وإنّ المتلقي القارئ أو الناقد حين ينظر إلى النص لابد وان يقع نظره بداية الامر على العلامات اللغوية أو غير اللغوية الفارقة وهذه العلامات لا يختلف أحد على وجودها وان اختلفت تسميتها فقد أطلق عليها النقّاد (العتبات النصية، النص الموازي، النص المصاحب، المناص..) ولعل أول من اختص أو أورد ذكر العتبات بصورة تفصيلية وبنسق دلالي هو جيرار جنيت في كتابه العتبات[٢]

يعد العنوان أهم العتبات النصية في أي عمل ابداعي وإن (السمة الأساسية التي تتمتع بها أغلب العنوانات هي الاقتصاد اللّغوي في مقابل الاتساع الدلالي .. وهذا يمارس التكثيف للدوال المبثوثة في بنيته اللغوية)[٣] ولا نسعى هنا للوقوف عند مفاهيمه ووظائفه وأنواعه، بل ما يهمنا الحديث عن ولادة المفارقة المنبثقة من العنوان والتي تقيم علاقة تفاعلية مع النص، لأنّ العنوان (بوصفه نصاً تعريفياً يقف على رأس العمل موجزاً رسالته وفق سياق دلالي، يحفز المتلقي إلى النظر فيه بغية تحديد هذه الرسالة ... وممّا لا شك فيه إنّ المبدع يختار عنوان عمله بقصدية أدبية فكرية، ينبغي من ورائها إعطاء بعداً زمنياً حيث يصمد بوجه القراءة والتأويلات التي تنطلق من الواقع)[٤] سعياً وراء قراءة جمالية متأتية للكشف عن مخبوءات النص ومحمولاته المعرفية (لكن المشهد ما إنْ ينجح في استدراج المتلقي إلى تصور معين حتى تتفجر المفارقة مكونة علاقة جديدة تقتحم ذهن المتلقي وتجعله مشككاً بحواسه في عملية إحلال صدمة المفاجأة أمام تلقٍ جديد يولد من رحم المفارقة)[٥].

ومن هنا أضحت العنوانات الشعرية بنى مولدة لشعرية النص متصلة به توازي في أهميتها النص الشعري ذاته ولعل ممّا يولده العنوان بنية المفارقة التي تتولد من ذلك العنوان فتصبح (النواة المتحركة التي خاط لها المؤلف عليها نسيج النص، فهي تأتي تساؤلاً يجيب عنه المتلقي إجابة مؤقتة للمتلقي) [٦] الذي يفاجأ بتلك المفارقة التي تتأتى في ذهن المتلقي فور تلقيه العنوان فتنبثق مفارقة العنوان فيحاول الشاعر أنْ (يقتنص الغريب والمدهش في تشكيل الصورة الشعرية، من خلال ابتداع الصياغات اللغوية غير المعهودة)[٧].

ـــــ مفارقة العنوان لذاته.

ونعني بمفارقة العنوان لذاته أي إنّ الشاعر قد حصر المفارقة في العنوان ولو أنّنا استخرجنا العنوان بذاته دون اللجوء إلى النص لوجدنا المفارقة واضحة جلية، سواء كانت المفارقة لفظية أو بأسلوب آخر كالاستهزاء والسخرية أو المدح بما يراد به الذم أو الذم بما يراد به المدح أو غيرها من الفنون التي تدخل مجال المفارقة.

وهذا يعني إنّ المفارقة تكمن في برقة شعرية خاطفة، لا تتجاوز في مشروعها الشعري بعض الكلمات، مختزلة بذلك فكرة النص، مكثفة بنضوج تام، تشعرنا للوهلة الأولى لدخول النص بصدمة مفارقاتية، موحية للمتلقي عن نضوج النص.

يعنون الشاعر كاظم الحجاج إحدى قصائده "الآباء يشبهون أبناءهم أحياناً"[٨] هذا العنوان لقصيدة من المطولات للشاعر يرى فيها إنّ الآباء يشبهون أبناءهم في حين إنّ التسلسل المنطقي يقول إنّ الآباء هم الأصل والأبناء فرعهم فالواجب أنْ يكون الفرع شبه الأصل وليس الأصل شبه الفرع لأنّ الفرع يأخذ جيناته الوراثية من أصله وكذلك يتطبع ببعض صفاته ويقوم على نهجه، فالمفارقة هنا مفارقة منطقية أو مغالطة منطقية لو كانت في السياق الطبيعي لوجدنا إنّ الشاعر يقول (الأبناء يشبهون آباءهم أحياناً) لكنه هنا أراد المفارقة والتحايل اللفظي ذلك أنْ يردف الجملة ــ جملة العنوان ــ بعلامة التعجب، وهذه القراءة المنفصلة لعتبة العنوان عن النص نجدها ذاتها مع وجود النص حيث نرى إنّ النص يبين علاقة الشاعر المتوازية مع أبيه فهما في خط شروع واحد، حيث هزالة الجسد، وفقر الحال والحب، .. وهكذا. فقد تولدت نواة المفارقة منذ العنوان (هذه النواة تجعل العنوان جزءاً أصيلاً من العملية الإبداعية لا ينفصل عنها، ويولد من رحم القصيدة وخاضع لمخاضها، ... وفق منظومة نفسية وخلقية ورؤية تتفاعل مع النص)[٩]. بحيث يصبح العنوان هو الفاعل المحرك لمفارقة النص المنبثقة مفارقة العنوان الذي يشكل بنية صغرى للتواصل مع البنية الكبرى(النص) الحافل بالمفارقة المتعالقة مع العنوان. إذْ يقول الحجاج في القصيدة:

وأبي كان نحيلاً مثلي

ممّا لا شك فيه إنّ لعتبة العنوان أبرز الأثر في الكشف عن جماليات النص بوصفها المدخل الأساس الذي يواجه المتلقي وانطباعاته النفسية والحسية ذلك إنّ العنوانات (تشكل علاقة دالة تلخص مدار التجربة والأبعاد الرمزية لها، فهي مفاتيح دلالية تؤدي وظيفة ايحائية) [١٠].

ولو تابعنا عنوانا آخراً من عنوانات الحجاج لوجدنا أنّه يواجهنا بعنوان قائم على المفارقة فالعنوان ما هو إلّا مفارقة توحي لنا ما بعدها داخل النص فما هو خارج الحدود كان داخل المتن، وهذا يكفي لتكون

مفارقة تضاد لفظية بين كلمتي (داخل، خارج)، وهي غايتنا من دراسة هذا النص، الذي يوحي لنا عنوانه " خارج الحدود.. داخل المتن" [١١]. بالمفارقة ويكفينا العنوان لذاته بتكوين مفارقة لفظية ولكنّنا لسنا بغنى عن النص لمعرفة أسرار العنوان بغية الوصول إلى مفارقة أخرى، فما هو خارج حدود النص كيف يمكن له أنْ يكون داخل حدوده، وهنا تكمن التساؤلات عمّا هو خارج حدود النص أو خارج حدود البلاد، فعلى افتراض أنْ يكون خارج حدود النص عتبة عنوان مفاجأة بلفظ مفارقاتي فكيف يكتب نص بمتن محدد، والمراد من ذلك النص هو خارج حدود المتن؟، التساؤل الأكبر يمكن في إنّ المراد من النص لابد أنْ يمر من خلال عتبة العنوان حيث قراءة النص من دون العنوان توحي إنّ النص، لذاته لكن العنوان يؤكد إنّ المراد منه خارج المتن وهي تعتمد على قراءة ممتدة بخط فهم وهمي مواز بين المتن وعتبة الدخول اليه، أمّا إذا كان المقصود منه خارج حدود البلد بإشارة إلى قصة القصيدة المشتركة في بنائها، فيحيلنا إلى قراءة القصيدة لفهمها والاطلاع عليها من دون أنّ تشترك في بناء مفارقة العنوان.

ونراه تارة أخرى وفي نص آخر يعبر بين الأجناس الأدبية بمفارقة واضحة من عتبة العنوان " قصة شعرية"[١٢]، وهي مفارقة لفظية واضحة، فالمعروف في أجناس الأدب هناك شعر ونثر والقصة من أجناس النثر، أمّا الجمع بين الجنسين الشعر والنثر فليس بسياق القاعدة.

فإذا كان العنوان (جزءاً من استراتيجية النص لأنّ له وظيفة في تشكيل اللغة الشعرية وليس بوصفه مكملاً أو دالاً على النص ولكن بوصفه علاقة لها بالنص علاقات اتصال وانفصال)[١٣]، وقد استطاع كاظم الحجاج أنْ يجعل عنواناته تتسم بطاقات إيحائية تخلق مفارقة إيحائية بين الظاهر والباطن في النص وتنبض شراييها بالإدهاش الذي سيطر المبدع إلى زجه في ذهن القارئ، ويتأتى عنصر المفارقة هنا إلى جر المتلقي إلى دائرة الإمساك بالنص، بأنْ يحيل النص على مصطلح القصة الشعرية التي تعرف بأنّها (لجوء الشاعر إلى حادثة تاريخية أو واقعية .. أو يتطرق فيها إلى موضوع عاطفي معين، وقد يكون النظم في القصيدة أمّا سرداً أو حواراً يستخدم فيها الشاعر الكلمات الرقيقة والعبارات الرنانة التي تؤثر في القارئ فيتخيل ويصور الحادثة بتوظيفها ... ولا يمكن لأيّ شاعر أنْ يتمكن من النظم القصصي إذا لم يكن موهوبا ذا إحساس بالحادثة التي يرويها) [١٤]، بيد إنّ الحجاج لم يكن يتناول حادثة قصصية سواء أكانت ذات طابع تاريخ أو معاصر وهنا يتجلى عنصر المفارقة.

وفي عنوان آخر " هنا.. في ظلام النهار"[١٥]، يرى الشاعر كاظم الحجاج إنّ النهار له ظلام وحسب السياق الحياتي، إنّ النهار مبصر والليل يحتوي الظلام وهو موعد السبات وحسب قوله تعالى: (هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يسمعون)[١٦] ، فخلق الليل والنهار من منظور الآية القرآنية جعل هناك طباقاً بين الليل وسباته مع النهار وضوئه، إنّ هذه الحركة المستمرة التي جعلها الله تعالى منذ خلقه الكون ما زالت مستمرة إلى الآن لكن الشاعر يرى إنّ في النهار ما يشوبه وهو ظلامه ليفتح لنا باباً من التساؤل عن هذ الظلام، فالمفارقة تكمن في انعطاف التفكير حول حدث جديد يتمظهر

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤(أ) – المجلد ٤٧ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٢

بأشياء مختلفة فلو قال الشاعر: (ظلام الليل أو ضوء النهار)، لكان الحدث عادياً جداً وما احتاج إلى تأويل أو تفسير لكن الانطلاق البعيد عبر عتبة العنوان يوحي للقارئ إنّ النهار يخبئ في طياته شيئاً مبهماً تاركاً التساؤل مفتوحاً للقارئ الذي ينظر إلى البعد الآخر من النص والذي لم تنطلِ عليه المفارقة. وما يؤكد ذلك عند قراءتنا النص نجد إنّ هناك الكثير من الأجوبة للتساؤلات المطروحة حول البعد الثاني المفارقاتي لعتبة العنوان.

ولا يُختصر الموضوع عند هذا الحد فقط، فهناك عنوانات أخرى هي عتبات مفارقاتية محضة مستقلة لوحدها عن القصيدة، حين نقف عن عتبة العنوان " نشيد النخلة "[١٧]، إنّ علاقة الجنوبيين بالنخيل علاقة تبعث المفارقة على حد ذاتها، فنحن في الجنوب نحب عماتنا كثيراً كما أرشدنا رسولنا الكريم محمد {صلى الله عليه والله} بقوله: (أكرموا عمتكم النخلة فإنّها خلقت من فضلت طينة أبيكم آدم ..)[١٨]، إنّ لقداسة النخلة عندنا ما يجعلها سيدة الشجر بلا منازع، أمّا عتبة العنوان (نشيد النخلة)، فهي تحيلنا إلى اتجاهين الأول هو إنّ للنخلة نشيد تغنيه هي، والنخلة جماد لا تحتمل الغناء ولا تستطيعه، أمّا الاتجاه الثاني فيبين إنّ للناس نشيد ينشدونه للنخلة، إنّ هذين المذهبين يوحيان بفكرتين مختلفتين توقع المتلقي بحيرة من أمره، وهذا لذاته مفارقة حيث يخدع المتلقي بأحد هذين الرأيين.

أمّا في نص آخر حيث عتبة عنوانه "ستعود الريشة للطائر ومريم.. لنا"[١٩]، فهو عنوان كبير يخبئ تحت طياته الكثير من العناوين المفارقاتية فبين الضمير (له) والضمير (لنا)هناك مفارقة ضدية بين (المتكلم والمخاطب)، مفارقة الضمائر فيما بينها، وبين (المتكلم والمتلقي)، مفارقة لفظية تحتوي على الطباق وهي أنّ (الريشة للطائر)، وهل غير الطائر يحتوي الريش؟ فعودة الجزء إلى الكل توحي لنا بخط وهمي عودة (مريم) وهي الجزء (لنا) وهو الكل، يظهر لنا إنّ (الريشة، مريم) في الوقت الحالي غير موجودتين لا الريشة عند الطائر، ولا مريم عندنا، ولكن بحتمية عودة الريشة لطائرها فإنّ عودة مريم لنا، والمفارقة هنا هي إيهام القارئ بحتمية عودة مريم ولكنها في الحقيقة مجرد أمنية لعودتها تحت ظرف معين، موضحة تفاصيله داخل النص غير إنّ هذا لا يعنينا كون مفارقتنا مختصة بعتبة العنوان.

أمّا حين تكون المفارقة بين التملك من عدمه في مقارنة بين الشاعر والدكتاتور، نشاهد عتمة في المقارنة فالدكتاتور الحاكم يمتلك كل شيء حتى أنّه يمتلك الشعراء وليس جميعهم بل أغلبهم، أمّا ما عرفناه من الشعراء فأنّهم لا يمتلكون إلّا قصائدهم دون أوراق كتابتها أحياناً، تكتمل المفارقة اللفظية في عتبة العنوان لهذه القصيدة:

"ما لا يمتلكه الدكتاتور

يمتلكه الشاعر"[٢٠]

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤(أ) – المجلد ٤٧ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٢

وحين ندخل سويا من عتبة العنوان إلى القصيدة نجد إنّها ترسم صورة واضحة لكل ما نعرفه عن الدكتاتور، إنّ انسيابية النص في الشرح عن حياة الدكتاتور تكاد تحيلنا إلى الواقع الذي نعيشه بل هي مشتقة من الواقع الذي نعيشه سواء بالتأريخ الماضي أو الحاضر، وربما حتى إشارات للمستقبل، فبين الألقاب التي يمنحها لنفسه، وشرف الوراثة لعرشه من أبنائه الشرعيين، وبين لياليه، وأيامه، وقصوره الكبيرة والكثيرة، حتى إنّ ذاكرته لا تستوعب مجده. بالتالي نراه ينسى الأحبة والأصحاب، ونرى أنّ هذا الامر طبيعي جداً وقد يسير عليه معظم الحكام، لذا فإنّ الشاعر لا يود أنْ يجري مفارقته ومقارنته مع حاكم آخر في نفس زاوية الحكم الأولى بل إنّه يحول مفارقته إلى حاكم بحكومة تخيلية وليست واقعية وهو الشاعر الذي يصنع دولته بمخيلته وأحلامه فقط، والمفارقة هنا إنّ هذا الشاعر كما يقول الحجاج:

الشعراء وحدهم. لا يملكون شيئاً غير الأصدقاء

ووحدهم يحفظون أسماء أصدقائهم وأسماء

بنات الجيران.. من دون سجلات! (٢١)

هنا فقط يجيب الشاعر عن التساؤل الذي طرحه من خلال قراءتنا لعتبة العنوان بعد إنْ تعرفنا على المفارقة الواردة فيه، فيبث لنا صوت الشعراء من خلال تجاربهم عن ذاكرة متقدة لحفظ كل شيء مختص بالحياة، ويثير الجمال في ديمومة إنسانية لا يمتلكها الديكتاتور، إنّ لعتبة العنوان لوحدها مساحة خصبة من التأمل فالواقع في شباك المفارقة يرى إنّ الشاعر يمتلك شيئاً محدداً لا يمتلكه الحاكم وربّما يستطيع الحاكم أنْ يمتلكه، لكن الوجه الاخر لقراءة عتبة العنوان وهو الوجه المفارقاتي يرى إنّ هناك شيئاً لا يستطيع الديكتاتور أنْ يمتلكه وهذا فقط يمتلكه الشاعر، وهذا واضح بقراءة العنوان لوحده وهو ما يؤكده النص إنْ تأملنا به.

وعند البحث في عتبة عنوان أخرى وجدنا عتبة لقصيدة أخرى تأملنا فيها وجها مفارقاتياً آخراً، فعن قصيدة "القهوة المرة"(٢٢)، عند القراءة الأولى للعنوان نتساءل حوله عما إذا كانت هناك قهوة غير القهوة المرة وإذا ما عرفنا إنّ هناك أنواعاً أخرى من القهوة تضاف لها بعض المطيبات، وهي متوفرة أيضاً في الأسواق بل إنّ روايات الأصل في القهوة (إنّ الرعاة العرب لاحظوا أنّ أغنامهم كانت تأكل من ثمرة معينة فيبدو عليها نشاط غريب. وقد أقبل الرعاة ذات مرة على هذه الثمار فلم يستسيغوها طعماً فألقوا بها إلى نار موقدة، فكانت لها رائحة ذكية عبقة فعمدوا بعد ذلك إلى شرب ماء هذه الحبوب بعد غليها..) (٢٣) فعملية شرب القهوة كانت وما زالت بفنون مختلفة فهي (نوعان: قشرية وبنية، فالأولى من قشر البن فقط أو منه مع حبه المقلو والاخرى من البن المدقق أو المسحوق يغلى بالماء حتى تخرج خاصيته، وللناس فيما يشربون مذاهب، فمنهم من يشرب القهوة مضافاً إليها بعض السكر، ومنها من يشربه بدونه..)(٢٤)، وهذا ما يضع القارئ في اختبار القراءة الأولى للنص (وقد نقول بعبارة أخرى إنّ الكشف عن المعنى الحقيقي الذي يسوقه الكاتب لا ينتج عنه إلغاء قوة المعنى الظاهر. وقد يعني هذا أيضاً إنّ المفارقة لا تتميز بالغموض فحسب الذي يكتنف القول، بل

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤(أ) – المجلد ٤٧ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٢

بالإحساس الغريب كذلك الذي يوله اشتمالها على عناصر متعارضة. وتكمن الطبيعة الإشكالية في حل دلالة المفارقة في هذا النوع من الغموض. ومن ثم فإنّ فن المفارقة يتحقق حين يقال الشيء دون أنْ يقال. وحين يكون القصد مفهوماً دون أنْ يكون جلياً)[٢٥]، إذن فالقراءة الأولى تقول أنّها (قهوة مرة) وهذا الأمر يبدو عادياً فأصل القهوة مرة، إنّ رمزية القهوة في المجتمع العربي تحيلنا إلى وجه آخر لقراءة هذه العتبة، فماذا لو قلنا إنّها الحقيقة المرة التي كان يتحدث عنها الشاعر كعتبة أراد منها الولوج إلى داخل القصيدة.

ثانيا: مفارقة العنوان مع النص.

قلنا فيما سبق إنّ العنوانات لم تعد مفتاحاً دلالية للنصوص فحسب بل أضحت إحدى المولدات الشعرية التي تتعالق مع النص وتلتحم مع بنيته من هنا أضحى العنوان مرجعاً (بني على الكثير من الرموز والعلامات والإشارات بغية تكثيف المعنى، لتثبيت إنّ كل عتبة يطلقها الشاعر تنتمي إلى قصد معين)[٢٦]، لذلك أشار النقاد إلى إنّ دراسة أيّ نص شعري لا يمكن أنْ تكون بمعزل عن عنوانه للكشف عن العلاقات بين النص وعنونته إذ ستظهر من خلال ذلك (حقول تفرض نفسها على القارئ، أولها يتعلق بالمفهوم، والثاني بالأهمية، والثالث بكيفية الدراسة، ومدار الأمر في كل ذلك مرهون بتفكيك علاقة العنوان بالخطاب)[٢٧]، بحثاً عن الإجابات التي يبحث عنها المتلقي لملئ فراغات النص.

وإذا كان العنوان (ليس كلمة عابرة توضع اعتباطاً، بل يتم اختيارها أو اللجوء إليها بدوافع مختلفة وضغوط متفاوتة، فالكاتب حيث يختار عنواناً لعمل ما، فإنّما يستجيب لقوة داخلية غامضة تملي عليه هذا الاختيار.. بدوافع ثقافية أو إيقاعية أو تركيبية تتصل ببنية النص أو تستدعي أصداء لعناوين خارجية أخرى وأحداثاً بعيدة موحية)[٢٨]، إنّ الحجاج شاعر مثقف وقد استطاع توظيف ثقافته في نصه الشعري مستغلاً إحساسه المرهف في بنية النص وفي توظيف العنوانات الملائمة التي تتعالق مع النص.

كثيرة هي العنوانات في قصائد الشاعر كاظم الحجاج التي تحتوي على مفارقة بين العنوان والقصيدة أو النص، فالعنوان عند قراءته لوحده يعطي رؤية محددة لكن هذه الرؤية تختلف عند دخولنا إلى القصيدة فنحصل على مفارقة بين المعنيين، المعنى الأول المراد منه في عتبة المفارقة والمعنى الثاني في تفاصيل النص.

فحين يكتب الحجاج "تضج"[٢٩]، عنواناً لقصيدة فإنّ هذا المصدر يصدّر لنا نصاً عن التكامل والنضوج حينما نعترف إنّ العنوان عتبة لدخول النص لكنّنا نفاجأ حين نجد إنّ الدخول إلى النص يبدأ بالشحوب.

أني فتى كالبرتقالة شاحبٌ

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤(أ) – المجلد ٤٧ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٢

وهذه أيضا مفارقة فشحوب البرتقالة يعني أنّها ناضجة.. إذن لم هذا التوجس من النضج؟، هنا لا بد لنا من معرفة ما يدور بخاطره حتى نصل معه إلى فكرة النص أو على الأقل أنْ نسير بخط مواز معه.

والبرتقالة لا تخاف

لكنّما..

يصفر وجه البرتقالة

كلما قرب القطاف!

يكشف لنا الشاعر عن مدى توجسه من هذا النضج الذي يؤدي إلى القطاف والأفول فكأنّما يريد أنْ يحذر البرتقالة عن النضج كيما تكون لقمة لذيذة بين فكين، ولهذا نجد إنّ هناك مفارقة كبيرة بين العنوان والمعنى، ليرمي المعنى وكأنّه يقول (لا نضج) أو (إياك والنضج)، لكنه ترك التحذير من خلال صورته في النص، فيكتمل المعنى، أي معنى عتبة العنوان بدخولنا إلى داخل النص، ليبث لنا مفارقة متكاملة، قائمة على التناقض بين العنوان والمتن فإذا كان النضج يوحي بالاكتمال والرقي فإنّ الحجاج هنا يدرك (ما يحيط به من تناقضات يقوم بتوظيفها على وفق ما يمتلكه من طاقات تعبيرية واسعة تحققها المفارقة التي يستعملها في سبك أفكاره الحيّة بأسلوب يفرض على المتلقي ضرورة الانتباه لإدراك حجم المفارقة)[٣٠]، التي أضحى النضج فيها لا يعني الاكتمال بل النهاية والضياع.

أمّا في هذا النص (تصحيح!) [٣١]، فعندما نقف عند عتبة العنوان نشاهد إنّ الشاعر أراد أنْ يخبرنا إنّ هناك ما هو غير صحيح، ولكنّه كذلك يفاجئنا بعلامة التعجب بعد الكلمة ليجعل المتلقي في حيرة من الدخول لمعرفة المسار الصحيح أو الوقوف عنده حذر التعجب فهل التعجب عن التصحيح أم للتصحيح.

يقول:

آخر ما يفعله المحررون

قبل النوم ــ

في الجريدة

أنْ ينكروا أخطاءهم

فالمفارقة إذن تكمن في إنّ الحجاج أراد أنْ يبين إنّ التصحيح هو لخطأ موجود فعلاً ويعترف المحررون بخطئهم لكن طريقة معالجته كانت جريمة كبرى بحق المهنة (مهنة الصحافة) وهي إنكار الخطأ.

فالشاعر يعقد مفارقة قائمة على التناقض بين المتن والعنوان عبر تحميل الألفاظ دلالة أخرى مباينة لدلالتها المعجمية، إذ (تتجاوز لغة المفارقة في قيمة شعريتها الإطار المعجمي الذي يقوم على بنى التقابل في

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤(أ) – المجلد ٤٧ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٢

ثنائيات تلازمية على نحو محفوظ، فلا تقع أسيرة التقابل المعجمي بل تمتد لتشكل سياقات خاصة تسمح بالالتقاء بين الأضداد)[٣٢] ، فالتصحيح لم يعد على وفق دلالته المعجمية بل أضحى التصحيح يتم عن طريق الإصرار على الخطأ والاستمرارية.

وليس فقط المفارقة في الأمور المُسَلّم بها بل إنّ هناك رؤية خاصة للشاعر يحاول إسقاطها على النص بحجج تؤيد تلك الرؤية فعند الوقوف على عتبة "أمجاد"[٣٣]، وهي من القصائد القصار، تتحدث عن مجدٍ ما، لكن الشاعر هنا يرفض هذا المجد ويستهجنه فيضع نظريته ورؤيته له فيرفض أنْ يكون هناك مجد للرصاصة حين يتحدث عنها فالرصاصة المحظوظة من وجهة نظره هي تلك التي تخطيء هدفها بينما التعيسة هي التي ترتكب مجد الحرب، فبين التعاسة والمجد مفارقة ينتصر لها الحظ فتنتج قراءة ثانية للنص تبدأ بعتبة العنوان ولا بد أنْ تكون هذه الأمجاد مزيفة أو أنّها سميت بغير مواضعها، والحقيقة أنّ المجد لتلك الرصاصة التي تخطئ الهدف فيكون مجدها حفظ الدماء من الإراقة ونبذ الحرب والجنوح إلى السلام .

أمّا حين يعطينا طرفاً من الخيط ليجعل مخيلتنا تنتج الطرف الثاني منه، إذ نقف على عتبة عنوان اسمها " كاريكاتير شرقي " هنا ينبغي لنا أنْ نعرف ما يفرق الكاريكاتير الشرقي عن الغربي؟ وبماذا يختلف الكاريكاتير الشرقي هذا؟، حين نلج النص نجد أنّه سلَّط توجهه نحو فكرة معينة وهي إنّ المجتمع الشرقي يميل إلى الجدية في الموقف وعدم التنازل عن ذكوريته لأنّ الكاريكاتير [٣٤]، تعبير عن شيء من المزح والملاطفة لتصل من خلاله الفكرة إلى المجتمع ولذلك نجد ان الملوك والرؤساء وغيرهم من الأشخاص المهمين لا يتذمرون حين تنشر صورهم على شكل كاريكاتير[٣٥]، لكن الكاريكاتير الشرقي الذي صوره الشاعر حيث يقول:[٣٦]

امرأة حبلى في آخر أيام الحمل

تجلس صاغرة تتبسم

يجلس قدّام المرأة رجلٌ بثياب البيت

يبدو شرسا بشوارب قرصان ــ

وبإحدى كفيه عصا

تُتَهَدَّدُ بطن الحامل

والتعليق:

" فليتأدب منذ الآن"

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤(أ) – المجلد ٤٧ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٢

إنّ المشهد الذي نراه أمامنا الآن هو ليس مشهداً كاريكاتيرياً بل مشهداً جدياً حتى وكأنّ الرجل بملابس البيت منتظراً بضعة أيام حتى يخرج وليده للدنيا فهو ما زال محتفظا بكامل (فحولته) أمام الزوجة وهي صاغرة تتبسم لتكتمل رؤية المفارقة لدينا بأنّ الشاعر لم يقصد منها كاريكاتيراً بل أراد أنْ يقول مشهداً شرقياً جديّاً، فهو عرف عنه بالمزح أراد به التورية عن الجدية، فقرينة العصا والتهديد للوليد لا تنطبق والرسوم الكاريكاتيرية التي هدفها السخرية والمتعة، ولكن أيّ سخرية، إنّها السخرية من الرجل الشرقي الذي يظهر بطولاته على زوجته وعلى ابنه المنتظر لكنّه غارق بالذل أمام العالم.

وقد اختار كاريكاتير عنوانا للقصيدة لأنّ (التصوير الكاريكاتوري هو وضع الشخص في صورة مضحكة عبر المبالغة في عيبه وأشيع في القرن التاسع بما يعرف بكوميديا الأمزجة التي تبالغ في إيضاح العيوب) [٣٧] بطريقة تثير الضحك والاستهزاء.

لتستوقفنا بعدها عتبة عنوان فيها حديث لرجل عجوز في الأمس أحب مدينته! فيكون السؤال الحتمي وماذا بعد الأمس؟ أو ماذا قبل الأمس؟ ولماذا الأمس، عتبة عنوان القصة خبر لم يكتمل احتاج إلى سؤال من القارئ ليجيب عنه الشاعر داخل القصيدة فتكتمل الرؤية لديه "عجوز يحب مدينته.. بالأمس"[٣٨] ندخل معاً للبحث عن مدى هذا الحب ولم كان محصوراً بالأمس أو ان كان تعداه فما مدى تعديه؟،

الشاعر لا يرى مدينته إلا بالأمس لخصوصيتها عنده فهو غادر مدينته الأم في أول صباه وترعرع بعيداً عنها لكنه ما زال يذكر ملامحها بكل التفاصيل، ليقدم رؤيته من خلال القصيدة فالرجل يحلم بتلك التفاصيل غير أنه لا يراها يقول:

أنا لا أرى مدينتي الآن.. أتذكرها فحسب.
أنا لا أعيش في مدينتي الآن.. أسكنها فحسب.

يبحث عن مدينته وسط دهشة الغربة التي يعيشها لذا فهو يرى أنّ المدينة التي نشأ وترعرع فيها رغم ما فيها من المساوئ هي المدينة التي تستحق العيش والحياة والخطاب ليس لمدينة الهوير فحسب بل يعممه ليكون لمدينة البصرة

أيها البصريون لا تروا مدينتكم الان.. تذكروها فحسب!

لماذا هذا الاستهجان؟ هل كان الشاعر ضد التطور العمراني ــ إذ يحن إلى بيوت القصب والهور وأسماكه ــ ؟ أم ان للشاعر رأي اخر؟ فتكون الإجابة مختلفة تمام الاختلاف

كان شعار الستينيات: السعر العالي لكتاب يحميه
من الاميين
لكن المهر الغالي يعطي الحلوات إلى الأميين! ..

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤(أ) – المجلد ٤٧ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٢

إذن لم يحفل الشاعر إلّا بقيم السابق وما ذكره للمدينة إلّا بما فيها وليس ما عليها أو ما هي عليه، فهو يمر على الهور، وفحل الكنطار، والمشحوف، والبندقية(الشوزني) والبستان، والجامع، وصديق الطفولة ـــ عزالدين سليم (عبد الزهرة عثمان محمد)، لكنّه يمر بذكرهم وحسب أنمّا حين يمر على المقاهي والمكتبات والصحف والكتب ودور السنيما فإنّه يمر بهما فهو يعرفهم " أبهى سنوات الكون" ممهدا لختام القصيدة:

أيّها البصريون أبنوا مدينتكم بالأمس! احلموا بها،
قبل أربعين عاماً أو أكثر، احلموا في النهار، فالليل
ما زال غير بصري!

لتتضح هنا المفارقة جلياً أنّ الشاعر كان يريد من خلال عتبة عنوانه التحذير عن اليوم الذي نعيشه بشيء من الاستهجان ملامساً طرفاً من الماضي الذي يداعب المشاعر من غير قناعة بالماضي ولكن بعدم الرضا باليوم مفضلاً الماضي على أنّه بصري خالص نحلم به بالليل والنهار بكامل ثقافتنا ومشاعرنا.

ولعل بنية النص هنا تقوم على المفارقة الساخرة بين جيل يقدس الكتاب ويدفع ثمناً غالياً من أجله، وجيلٍ جاهل أمّي يتزوج جهلاؤه أجمل النساء ويقتنون أفره السيارات في مدينة لم تعد كما كانت بل أضحت لا يعرفها أهلها ولا تعرفهم.

ويبدو إنّ المفارقة تتضخم ويبدو دورها واضحاً في كسر أفق التوقع حين يقول الشاعر (احلموا بها في النهار) منزاحاً عن أفق الانتظار الذي أشارت إليه دراسات ياوس ذلك (إنّ القيمة الجمالية الشعرية للعمل الادبي تكبر كلما كان كسر أفق التوقع ضرورة يتطلبها استقبالك العمل الادبي وفهمه وكلّما تضاءل دور المسافة الجمالية اقترب العمل الأدبي من المستهلك وابتعد عن الإدهاش)[٣٩] . وهنا ينفتح النص المفارق للحجاج على تأويلات متعددة ولعل منها إنّ ليل البصرة لم يعد كما كان ليل العشاق والمتنزهين، بل أضحى ليل الرصاص العشوائي والصراعات القبلية فلم تعد صالحة حتى للحلم الليلي بل أضحى أهلها غرباء فيها وصارت لغيرهم.

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٤(أ) - المجلد ٤٧ - كانون الأول لسنة ٢٠٢٢

الخاتمة:

تعددت العتبات عند الشاعر كاظم الحجاج في حين كان الجزء الأكبر من عتباته مصاغة بصورة مفارقاتية كانت بعض المميزات الخاصة في استعمالاته، بالتالي فأنّ اشتغالات البحث كانت على مستويات البنية في مفارقة العتبات وفاعليتها عند الشاعر كاظم الحجاج، إذ كانت هناك مفارقة لعتبة العنوان لذاتها من دون تدخل المتن، وكانت أخرى مفارقة مع المتن، فكان الشاعر يوظف عتباته بصياغات مختلفة وفق الرؤيا التي يريد للمتلقي أنْ يفهمها من خلال فهم المفارقة، فالعنوانات لم تعد مفتاحاً دلالية للنصوص فحسب بل أضحتْ إحدى المولدات الشعرية التي تتعالق مع النص وتلتحم مع بنيته، من هنا أضحى العنوان مرجعاً بُني على الكثير من الرموز والعلامات والإشارات بغية تكثيف المعنى، لتثبيت إنّ كل عتبة يطلقها الشاعر تنتمي إلى قصد معين.

الهوامش:

(١)عتبات، جيرار جنيت من النص إلى المناص، ترجمة عبدالحق بلعابد: ١١

(٢)ينظر، العتبات النصية في رواية الطوفان لعبد الملك مرتاض، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة وهران/ الجزائر: غريس خيرة ٣٠ ــ٣١

(٣)العنوان في الشعر العراقي المعاصر انماطه ووظائفه، د. ضياء راضي الثامري، كلية الآداب، جامعة البصرة، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، عــ٢، م١٩: ٨٩: ٢٠١٠

(٤)المتعاليات النصية في شعر سامي مهدي (مجموعة أبناء إيننّا مثالاً): محمود جمعة: دار نون للنشر: نينوى :٢٠٠٧: ٣٠

(٥) توأم الفراشة مقاربة شعرية في المفارقة، د. محمد جواد حبيب البدراني، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، عــ ٣: م١٢: ٤٨: ٢٠٠٥

(٦)شعر جيل الستينيات في العراق (دراسة موضوعاتية): زينة محجوب حسين، أطروحة دكتوراه، جامعة ديالى، كلية للعلوم الانسانية، ٢٠٠٧ :٣١

(٧)القصة في شعرية سعدي يوسف البناء والرؤيا، د صباح عبدالرضا اسيود، مجلة آداب جامعة ذي قار، عــ٢١، ق٣، ٨٩: ٢٠١٧

(٨)الأعمال الشعرية: كاظم الحجاج :٢٨٠

(٩)قراءة في النص الشعري الحديث: بشرى البستاني، دار الكتاب العربي، الجزائر:٢٠٠٢ :٣٢

(١٠)شعرية العنوان في الشعر السوري المعاصر السياق والوظيف: مفيد نجم، مجلة نزوى: سلطنة عمان، العدد الأول يناير٢٠٠٩: ٨٦

(١١)الاعمال الشعرية: كاظم الحجاج: ٩١

(١٢)المصدر نفسه: ٧٦

(١٣)سيمياء العنوان: د. بسام قطوس، وزارة الثقافة، عمان، الأردن:٢٠٠١: ٥٧

(١٤)القصة الشعرية في العصر الحديث: عزيزة مريدن، دار المطبوعات الجامعية، الجزائر: ١٩٩٨: ٥٢

(١٥) خلاصات السبعين: كاظم الحجاج: ٣١

(١٦) سورة يونس ٦٧

(١٧)الاعمال الشعرية: كاظم الحجاج: ١٤١

(١٨)كشف الخفاء ومزيل الالتباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة الناس، إسماعيل محمد العجلوني، دار احياء التراث/بيروت، ط٢: ١٧١

(١٩)الاعمال الشعرية: كاظم الحجاج: ٨٩

(١٢٠)المصدر نفسه: ٢٧٣

(٢١)المصدر نفسه: ٢٧٩

(٢٢)المصدر نفسه: ١٩٣

(٢٣)أدبيات الشاي والقهوة والدخان: محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي المكي :٣٩

(٢٤)المصدر نفسه :٣٠

(٢٥)المفارقة في القص العربي المعاصر: سيزا قاسم: مجلة فصول: عدد ١٩٨٢:٢: ١٤٤

(٢٦) هوية العلامات: شعيب حليقي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة: ٢٠٠٤ :١٠

(٢٧) لسانيات النص نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري: احمد مواس، عالم الكتاب الحديث، ط٢: اربد ٢٠٠٩: ٤٠

(٢٨)الدلالة المرئية (في شعرية القصيدة الحديثة): علي جعفر العلاق، دار الشروق عمان ٢٠٠٢: ٥

(٢٩) الاعمال الشعرية: كاظم الحجاج: ٢٨

(٣٠) المفارقة في شعر ابي نواس: كرار عبدالاله الابراهيمي: رسالة ماجستير/جامعة المثنى/ كلية التربية للعلوم الإنسانية/ ٢٠١٧ : ٨٦

(٣١) الاعمال الشعرية: كاظم الحجاج: ٢٠٠

(٣٢)خطاب المفارقة في الأمثال العربية مجمع الامثال للميداني: انموذجا: بن صالح نوال، أطروحة دكتوراه، جامعة بسكرة، الجزائر، كلية الآداب واللغات ٢٠١٢: ١٠١

(٣٣)الاعمال الشعرية: كاظم الحجاج: ١٨

(٣٤)ينظر: الاكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية: العدد الثامن ٢٠١٢، ص ١٥٢ــ١٥٤

(٣٥) الاعمال الشعرية: كاظم الحجاج: ٢٦

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٤(أ) – المجلد ٤٧ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٢

(٣٦) ينظر: علي منعم القضاة، سياسة أمريكا تجاه العراق في الكاريكاتير الأردني (دراسة تحليلية)، العلوم الإنسانية الاجتماعية، المجلد٣٦، ملحق، ٢٠٠٩: ١٥٠

(٣٧)ينظر: السخرية في الادب العربي الحديث عبدالعزيز البشري انموذجاً، سها عبدالستار السطوحي، الهيئة المصرية للكتاب:٢٠٠٢: ١١٠ــ ١١١

(٣٨)الاعمال الشعرية: كاظم الحجاج: ٢٢٨

(٣٩)من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة، عبدالكريم شرقي، دار الاختلاف، الجزائر: ١٦٦

المصادر:

١. **القران الكريم**

٢. **كاظم الحجاج**، الاعمال الشعرية، سطور، ط١: ٢١٠٧

٣. **كاظم الحجاج**، خلاصات السبعين، سطور، ط١: ٢٠١٩

٤. **احمد مواس**، لسانيات النص نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، عالم الكتاب الحديث، ط٢: اربد ٢٠٠٩

٥. **إسماعيل محمد العجلوني**، كشف الخفاء ومزيل الالتباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة الناس، دار احياء التراث/بيروت، ط٢

٦. **د. بسام قطرس**، سيمياء العنوان، وزارة الثقافة، عمان، الأردن:٢٠٠١

٧. **بشرى البستاني**، قراءة في النص الشعري الحديث، دار الكتاب العربي، الجزائر ٢٠٠٢

٨. **بن صالح نوال**، خطاب المفارقة في الأمثال العربية مجمع الامثال للميداني: انموذجا، أطروحة دكتوراه، جامعة بسكرة، الجزائر، كلية الآداب واللغات ٢٠١٢.

٩. **زينة محجوب حسين**، شعر جيل الستينيات في العراق (دراسة موضوعاتية) أطروحة دكتوراه، جامعة ديالى، كلية للعلوم الانسانية، ٢٠٠٧.

العدد ٤(أ) – المجلد ٤٧ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٢

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية

١٠. **سها عبدالستار السطوحي**، السخرية في الادب العربي الحديث عبدالعزيز البشري انموذجاً، الهيئة المصرية للكتاب:٢٠٠٢ .

١١. **سيزا قاسم**، المفارقة في القص العربي المعاصر، مجلة فصول، عدد،٢: ١٩٨٢.

١٢. **شعيب حليفي**، هوية العلامات، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة: ٢٠٠٤.

١٣. **د صباح عبدالرضا اسيود**، القصة في شعرية سعدي يوسف البناء والرؤيا، مجلة آداب جامعة ذي قار، عـــ٢١، ق٣، ٨٩: ٢٠١٧.

١٤. **د. ضياء راضي الثامري**، العنوان في الشعر العراقي المعاصر انماطه ووظائفه، كلية الآداب، جامعة البصرة، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، عـــ٢، م١٩: ٨٩: ٢٠١٠.

١٥. **عبدالكريم شرفي**، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة، دار الاختلاف، الجزائر.

١٦. **عتبات، جيرار جنيت من النص إلى المناص**، ترجمة عبدالحق بلعابد، الدار العربية للعلوم .

١٧. **عزيزة مريدن**، القصة الشعرية في العصر الحديث، دار المطبوعات الجامعية، الجزائر: ١٩٩٨.

١٨. **علي جعفر العلاق**، الدلالة المرئية (في شعرية القصيدة الحديثة)، دار الشروق عمان ٢٠٠٢.

١٩. **علي منعم القضاة**، فن الكاريكاتير في الصحافة البحرينية اليومية، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، العدد الثامن٢٠١٢.

٢٠. **علي منعم القضاة**، سياسة أمريكا تجاه العراق في الكاريكاتير الأردني (دراسة تحليلية)، العلوم الإنسانية الاجتماعية، المجلد٣٦، ملحق، ٢٠٠٩.

٢١. **غريس خيرة**، العتبات النصية في رواية الطوفان لعبد الملك مرتاض، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة وهران/ الجزائر.

٢٢. **كرار عبدالاله الابراهيمي**، المفارقة في شعر ابي نواس، رسالة ماجستير/جامعة المثنى/ كلية التربية للعلوم الإنسانية/ ٢٠١٧.

٢٣. **د. محمد جواد حبيب البدراني**، توأم الفراشة مقاربة شعرية في المفارقة، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، عـــ ٣: م١٢: ٤٨: ٢٠٠٥.

٢٤. **محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي المكي**، أدبيات الشاي والقهوة والدخان، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط٣: ١٩٨٤.

٢٥. **محمود جمعة**، المتعاليات النصية في شعر سامي مهدي (مجموعة بناء اننا مثالا)، دار نون للنشر: نينوى :٢٠٠٧ .

٢٦. **مفيد نجم**، شعرية العنوان في الشعر السوري المعاصر السياق والوظيف، مجلة نزوى: سلطنة عمان، العدد الأول يناير٢٠٠٩.